النص الأدبـــي من منظـــور بشـــر بن المعتمـــر (قـــراءة في صحيفتـــه) .

الدكتور : إبـــراهـــيم صـــدقـــة
جامعة فرحات عباس ــ سطيف ــ

ملخص :
يـروم المقال تـحديد تصور بشر بن المعتمر للنص الأدبـي ، وذلك من خلال الأفكار التي وردت في صحيفته ، التي اشتملت على توجيهات عدة : منها ما يتعلق بالتعلم ، ومنها ما يخص صناعة النص الأدبي والصورة التي يكون عليها ، مضمونا وأسلوبا ، والشروط النفسية والمعرفية التي يجب أن تتوفر في المنشئ ، والأوقات التي تستجيب فيها نفسه لصناعة النصوص وإنشائها . .

ويتحدد تصور بشر بن المعتمر للنص الأدبي من خلال تطرقه إلى مرحلة التعهد ، وبعض المفاهيم التي تنطوي عليها صحيفته ، وقضية اللفظ المعنى وقدرة الصانع على إحداث الائتلاف بينهما ...

هذه هي الأفكار التي تحاول هذه القراءة استجلاءها وتأويلها وفق الغرض المرام .

Résumé :
L'article aspire à définir la conception de BiShr Ibn aL-Mu'tamir du texte littéraire , à partir du contenu de son œuvre . On Y trouve plusieurs idées directrices : la idactique , l'élaboration du texte littéraire et ses configurations formelle et stylistique , les conditions psychologiques et épistémologiques que le créateur doit réunir et les moments favorable à la création littéraire ..

Bishr Ibn al- Mu'tamir perçoit le texte littraire à partire d'un arrêt sur la période de révision , de quelques concepts fondant son œuvre , du problème du signifiant et du signifié et du pouvoir du créateur à réussir la combinaison entre les deux ..

Voilà ce que propose cet effort d'interprétation , conformément au mode de lecture approprié .

توطئة :

تعد صحيفة بشر بن المعتمر (ت . 210 هـ)(*) من الأصول المعرفية العربية التي تناولت الكثير من الأفكار والقضايا الخاصة بعمليتي : التعلم والإبداع . وقد لفتت انتباه الدارسين في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية ، قدماء ومحدثين . وكان الجاحظ أول من تلقاها بإعجاب وإكبار ، ليجعل منها أسسا للدراسة البلاغية والدراسة الأدبية ، لا تزال معالمها باقية إلى يوم الناس هذا ؛ لأنها تتناول الأسس الفعلية التي تنهض عليها صناعة النصوص الأدبية،

المتمثلة في صانع النص والكيفية التي ينبغي أن يشكل بها نصوصه الإبداعيـــة .

فـــقد يـــبذل صانع النص جهدا كبيرا في المحاولة والمعاودة ، ولكنه لا يهتدي إلى تحبير نص فيه من المقومات ما يجلب الانتباه ويغذي العواطف والعقول. وقـــد يبذل صانع آخر جهدا أقل ، ومع ذلك يكون عطاؤه أكثر وأحسن من عطاء الأول . فرب ساعة أفضل من عمل ساعات طوال ؛ وآيـــة ذلك أن نفس الصانع لا تستجيب في كل الأوقـــات لصناعة النصوص ، ومن هنا عليه أن يستغل الأوقات التي تكون فيها نفسه قابلة لهذه الاستجابة ، ومتى أدرك ذلك درت عليه مالا تدره أوقات أخرى تكون فيها نفسه في منأى عن هذه الاستجابـــة . هذه العلاقـــة – علاقة استجابة النفس واختيار الوقت بصناعة النص – نالت الحظ الأوفـــى في صـــحيفة بـــشـــر .

وقـــد بدا لي ، وأنا أقوم بقراءة هذه الصحيفة ، أنها تتمفصل إلى ثلاثة تمفصلات عامة تتضافر فيما بينها لتكون تصورا معينا للنص الأدبـــي ، ورؤيـــة تفرديـــة للكيفية التي ينبغي أن يتشكل بهـــا .

وتتمثل هـــذه التمفصلات في تخصيصه حيزا في الصحيفة للحديث عـــن مرحلة التعهـــد ودورها في تحبيك النص ، وفي العدول عن الطريقة المتبعة في عملية التعلم ، وفي ضرورة الائتلاف بين اللفظ والمعنـــى .

هـــذه التمفصلات التي خصص لهـــا بشـــر فضاء لإعطاء مفاهيـــم جديدة لهـــا، ومن خلال بعض المصطلحات الواردة في الصحيفة ، هـــي المدار والمحور الذي يدور حوله المقال من أجـــل إعطاء تصور شامل للنص الأدبي وكيف ينهـــض بـــه صانعـــه .

أولا : مرحلة التعهـــد لدى بشر وأثرها في تحديد هـــوية النص :

• تطرق بشر بن المعتمر ، في صحيفته ، إلـــى الطرق التي يتبعها صانع النص الأدبي وما يجب أن يكون عليه الأدب في حقيقته المثلى ، مؤكدا على أن تعاطي الصنعة يرجع في أساسه إلى " **الطبيعـــة** " و " **العرق** " . وإذا انتفيا من الإنسان انتفت الصناعـــة . إلا أن " **طباع** " صانع النص لا تكون دائمـــا مواتية لـــه ومساعدة على التعبير عن أفكاره وما يدور بخلده ؛ بل أحيانا يستعصي عليه الكلام ويجافيه القول ، حتى ولو كان ذا طابع أصيل . في هذه الحالة نرى بشرا ينصحه بعدم الضجر ، وبترك ذلك إلى وقت آخـــر يكون فيه الذهـــن مرتاحا والنفس هادئة والإجابـــة حاضرة ، يقول : ((**فإن ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعـــة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة**

على عرق))(1) .

إن " **الابتـلاء** " الذي يرومه بشر ، يعني المعاناة الأدبية . فإذا كان الإنسان يعاني أدبا باطنيا ، فذلك يعني أنه صاحب طبع وذو ملكة أدبية . إلا أن هذه الملكة لا بـد لهـا مـن " **مران** " وممارسة ودربة . ومن هنا فإن بشرا يـريد أن يشير إلى أن هناك علاقـة وطيدة بين صانع النص الأدبي ونصه المصنوع ؛ فكلما كان التناسب بينهما قويا كانت العملية الإبداعية جيدة ومفيدة . وقـد كان بشر حريصا على أن يكون النص الأدبـي إيجابيا . ولذلك ينصح الأديب بأن يترك العملية الإبداعية إلى وقت آخـر ، إذا استعصى عليه ذلك في المرة الأولـى . لأن النص الأدبي لا يكون له وجود إلا إذا شعر الأديب بأن هناك انقيادا معينا من طبعه يجذبه نحو تعاطي القول . أما إذا لم يكن لديه هـذا الشعور والإحساس فإن تناسب بينهما يكون منعدما ومن ثم تنعدم معه ولادة النص .

إن الصناعة لا تتم إلا إذا كانت هناك مشاركة بين الصانع والشيء المصنوع، وإلا ترك هذه الصناعة إلى أخرى . ولذلك نرى بشـرا ينصح الصانع قائلا لـه: **((أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكلـه))**(2) .

إن صانع النص يتعامل مع اللغة ، وهي مادة بعيدة عنه . وأثناء الصناعة يحاول أن يقرب هذا البعد منه ، وذلك بالبحث عن الألفاظ المناسبة لمقامه ، فينتـقي منـها أفضلهـا وأكثرها

لائمة . ولهـذا شبـه صانع النص بصانع الأشياء الجامدة ؛ فكلاهما يتعامل مع مادة أجنبية عنـه . فالمعدن منفصل عن الصانع ، والخشب منفصل أيضا عن النجار ، ورغم ذلك فإن الصناعـة تتم بطريقة جيدة وتخرج فـي أحسن صورة ، لأن التناسب بين الطرفين موجـود والحنين بينهمـا قـائـم .

إلا أن الصانع نفسه قـد يصيبه ، أحيانا ، بعض الفتور والضعف فيصبح معها غير قادر على الصناعة والإبداع . وفـي هـذه الحالة عليه أن يترك هذه الصناعة إلى صناعات أخرى. ولذلك نجد بشرا يذكر الأديب (الصانع) بالحالات النفسيـة التي تكون فيها نفسه راغبة في التعبير والكتابـة . وذلك باغتنامه كل الفرص حتى ولو كانت قليلة . يقول : **((خـذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطـا ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهـدة وبالتكلف والمعاودة))**(3) .

أي أن لصناعة النص أوقاتا معينة ، وأن النص الأدبي في نظر بشر ، هو ذلك القول الذي يخلو من أي فحش أو خطإ ، كونه " **غـرة** " . وأن " **الشــرف** " الذي وصف به بشر مادة النص الأدبي ، يوحي لنا بأنها ، ينبغي أن تكون من نوع خاص . وكأنه يريد أن يفاضل بين النصوص التي تتم عن طريق " **التكلف والمعاودة** "وبين التي تتم عن طريق الاستجابة النفسية عندما تطاوعها ريشة الأديـب .

إن الإنسان لا يعاب إذا لم يصنع نصا أدبيا ، أو لم يكن من صانعي النصوص ، وإنما يعاب إذا ادعى الصناعة ولكنه لم يكن متقنا لها كل الإتقان وحاذقا لها كل الحذق . ولهذا يلح بشر على الإتقان والحذق والطبع فيقـول : ((**فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحـد . فإن أنت تكلفتهمـا ولم تكن حاذقا مطبوعـا ولا محكما لشأنـك ، بصيرا بما عليك وما لك ، عابك مـن أنت أقل عيبا مـنه ، ورأى من هـو دونـك أنـه فوقـك**))(4) .

إن النص الأدبي – حسب هذا المفهـوم – يتحول عـند المتلقي إلى سلاح يدافع به صاحبه عن نفسه أو يهلك بـه . ومن هنا نفهـم كيف كان القدماء يركزون على " **الطـبع** " وجـودة " **الصـنعـة** " وما يجب توفره لدى كل من الصانع والمتلقـي .

هـذا التصور الصناعي للنص لدى بشـر بن المعتمر – كما هو لدى غيره من النقاد الذين جاءوا من بعده – قـائم على القدرة التي تحصل للأديب بعـد " **الطبـع** " واختيار الأوقات المناسبة لعملية الصناعـة . وهـذه القدرة يكتسبها من تجارب السلف ومهارتهـم . لأن المعرفـة لا يتـم تراكمهـا في ذهـن الأديب إلا إذا تزود من ثقافـة السابقين وقابل بين نصوصهـم المختلفـة ووازن بينهـا ، وأدرك سـر قوتها وضعفهـا . هـذه المعرفـة هي التي جعلت بشرا يقف موقفا غير مستحسـن من إبراهـيم بن مخرمـة السكوني ، وهـو يعلم فتيان قومـه ؛ إذ قال لهـم بـشر : ((**أضربوا عما قال صفـحا واطووا عنه كشحـا**))(5) . لأن الكلام الذي سمعه من هذا المعلم لم يكن في المنزلـة التي ينبغي أن يكـون عليهـا ؛ خاصـة وأن المقام مقام تعليم الناشئـة فن الخطابـة وكيفية إنشاء نصوصها وإذاعتهـا في المستمعـين .

إن صناعة النصوص قائمة على تلاقح الخبرات وتدافعها وانصهار بعضها في بعض . فخبرة بشر ، هنا ، في توليد النصوص وصناعتها لم يستفد منها الفتيان فقط ، بل معلمهم كذلك ، وذلك حينما قـال : ((**أنـا أحوج إلى هـذا من هؤلاء الفتيان**))(6) . وهـذا يعني أنه أقل تجربـة وخبرة من بشر ، وأن تجربة هذا

الأخـــير برزت في صحيفته التي قدمهـــا لهذا المعـــلم الذي استفاد منهـــا وتزود بزادهـــا . فكانت ، هذه الصحيفة ، خيرا عم جميع المشتغلين في مجال العلم والمعرفة العامـــة ، وصانعي النصوص الأدبيـــة ومتلقيهـــا . وبهذه الطريقة تنتقل المعرفـــة والثقافـــة إلى ذاكرة الخلف ، ومن ثـــم يتم التواصل المعرفي بين الأجيـــال ، وتبقى المحافظة عـــلى الأصول قائمة ، مع إضفاء بعض المستجدات حتى تبقى الصناعـــة القوليـــة محافظة كذلك على قواعدها وأسسهـــا الصارمة التي تميزهـــا من بقيـــة الصناعات الأخـــرى . وبهذه الطريقـــة تكون الذاكرة عبارة عن خزان للمعرفـــة ، كونهـــا عاملا من العوامل التي يتخذهـــا الأديب أساسا في عملية صناعة النصوص . لأن ((**الذاكرة لا تخزن الصور فحسب ، وإنـــما تصهـــر وتغير من طبيعتـــها لتشكـــل منهـــا أنماطـــا جديدة**))(7) .ومن هنا تلعب الذاكرة دورا كبيرا في تزويد الأديب بالانفعالات والمشاعر والأحاسيس التي تعد رصيدا تنهض عليـــه النصوص الأدبيـــة .

إن التعلم ومجالسة العلماء وأهل البيان ، والاستماع إلى الحكماء أمر ضروري لكل صانعي النصوص ومتلقيها ، إذا أرادوا عصمة بيانهم من الفساد وحمايته أنفسهم من الخطل والخطأ.

ثانيـــا : مفهـــم النـــص لدى بـــشر :

يـــبدو أن بشر أراد بصحيفته هاته ، أن يرشد الأدباء إلى الكيفيـــة التي يكون عليها أسلوب النص ووحداتـــه ، بطريقـــة علمية تضبط النصوص وتجعلها تفرغ في قالب موحـــد يخضع له كل من يتعاطى صناعة النصوص . خاصـــة إذا عرفنا أن المقام الذي قدمت فيه هـــو مقام تعليم وتعلـــم . وغـــرض بشر هـــو تطوير هذه الطريقـــة ، والرفع من شأنهـــا وعدم تركهـــا لأنـــاس لا يدركون مجالهـــا . والدليل على ذلك أنه لم تعجبه طريقة إبراهيم بن جبلة في تعليم الفتيان فـــن الخطابـــة . وصنيع بشر في تقويم طريقـــة هذا المعلم دليل على أنه مدرك إدراكا جيـــدا مجال هذه الصناعـــة ، وأنه جدير بهـــذا التوجـــيه . وكأن بشرا يريـــد أن يقول ، إن الإنســـان لا يستطيع الخوض في مجال من مجالات الكتابـــة أو التعلم إلا إذا كان أهلا لـــه . وهـــذا التـــأهيل لا يتم إلا بالتعلـــم . وفي هـــذا كله مـــا يشي بجدوى التعلـــم . والنـــص الأدبـــي لا يمكن أن يكون له وجـــود إلا بالتعلـــم. لأن في التعلم خروجا عـــن التقاليـــد الباليـــة والطرق المبتذلـــة. والدليل على ذلك أن النص الأدبي الذي يفضله بشـــر هو الذي يكـــون ((**أكرم جوهـــرا ، وأشرف حسبـــا ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الأخطاء وأجلـــب لكل عيـــن غـــرة**))(8) . لأن هذه الخصائص : " **الـــشرف** " و " **الحسن** " و " **الحلاوة** " و " **الخلو من فاحش الأخطاء** " ، والاهتمام بما هـــو

"**غـرة** " ؛ أي أفض وأحسـن ، هـي خصائص النص الأدبـي ، وهي التي تفرق بينه وبين النص غير الأدبـي .

والـنص الذي يكون على هـذه الطبيعة ، ووفق هـذه الخصائص لا بـد من أن يكون لصانعه تعلم خاص يمكنـه من البحث عن المقومات الفنية التي تنشرح إليهـا الصدور وتستحسنها الأسماع . لأن الشرف الذي يقصده بشر ، ليس معناه تلك القيم الأخلاقيـة العاليـة فقط ،التي يكون عليها أفراد المجتمع ، بل المقصود بهـا ، كذلك ، تلك القيم الفنية التي تسمو بالكلام وتجعله في منزلـة رفيعـة . فالنص الأدبي إذا ، كلام رفيع المنزلـة ذو وظيفـة تأثيريـة خاصـة ، وأسلوبه ينبغـي ((**أن يكون مقبولا قصـدا ، وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعـه ونجم من معـدنـه**))(9) .

يـشير بشر ، هنا ، إلى أن الكلام الجيد ، هو الذي يكون معبرا تعبيرا صادقا عما يشعر به صانعـه ، وبطريقة عفويـة ، حتى يكون الأسلوب " **خفيفـا على اللسان سهـلا** " لأن الخفة والسهولة مصدرهما التلقائية في التعبير . ولذلك ربطهمـا بالينبوع والمعدن . فالتلقائية إذا هـي سبب جودة الكلام وسهولته ، وعكس السهولة " **التوعـر** " ، الذي يحذر منه بشر ويجعلـه سببا في رداءة الكلام، إذ يقول : ((**وإياك والتوعـر ، فإن التوعـر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هـو الذي يستهلك معانيـك ، ويشين ألفاظـك**))(10) . لأن قيمة النص لا تتحدد بالأفكار والمعاني ، بقدر ما تتحدد في طريقة التعبيـر عنهـا .

والملاحـظ أن بشرا يفرق بين " **التوعـر** " و " **التعقيـد** " ، وكأن المقصود بالتوعـر ، التكلف في البحث عن الألفاظ الغريبـة التي تفضي بالمتلقي إلى " **التعقـيد** " الذي يكون سببا في العزوف عـنه . فالتوعر يحول دون تأديـة النص وظيفته التأثيريـة ، لأنـه كلما كان النص مستغلاقا كلما كانت النفوس منه أنفر وأعزف ، وأنها لا تنجذب إلا ((**مـع الشهوة والمحبـة**))(11) . ولا تتلاءم إلا مع الأشياء التي لها من المدلولات ما يجعلهـا تنسجم معها . فيؤكد بشر ، بهذه الإشارة ، على المرسلـة ؛ أي على النص باعتباره عملية إنتاجية ، تستقبله نفوس تقوم بتحلله وتفكيك دوالـه ، لتصل إلى فهـم خطابـه . والتعقيد يحول دون فهم الخطاب . ومـن ثـم يكون " **التوعـر** " سببا في " **تشيين** " الألفـاظ والمعانـي.

لأن بلاغـة النص تتأتى للمتلقـي بعـد التحليل الأسلوبي له ، وفي هـذا المعنى يرى صلاح فضل ((**أن النص تتجلى فيه بنية كبرى ذات وحدة كلية شاملة . هـذه البنية بالذات هي موضوع التـأويل البلاغي الذي يأتي في الدرجـة بعد التحليل الأسلوبي للمتواليات ... فالنص وحـدة معقدة من الخطاب ، إذ لا يفهم منه مجرد الكتابـة فحسب وإنما يفهـم منه أيضا عملية إنتاج الخطاب**

في عمل محدد . فالخطاب يتجمع فيه أولا عمل تركيبي يجعل من القصيدة أو القصة وحدة شاملة لا يمكن قصرهـا على مجرد محصلـة جمع عدد من الجمل والفقرات ثم يخضع هـذا التركيب لعدد من القواعد الشكلية ، أي لعملية تشفير لا باعتباره لغة، وإنما باعتباره خطابا يؤدي إلى وجـود ما نطلق عليه قصيدة أو غيرهـا))(12) .

وإذا كانت صحيفة بشر خاصة بالعملية الإبداعيـة ، فإنها تشير إلى ما يجب أن يكون عليه النص من حسن ووضوح حتى يستطيع أن يقدم للقارئ المفاتيح الممكنة التي تجعله يظفر بخطابه ، بعد التفاعل الذي يحدث بينه وبين نسيجه اللغوي الذي هو خاصيته المميزة . وهنا يمكن أن نستشهد بقول الجاحظ في تعريفه للنص الشعري في فيقوله: **((فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير))(13)** . وهـنا إشارة إلى أن النص قـائم على الحذق والمهارة . لأن عملية التشفير تشبه عملية صناعة الأشياء ، والطريقة التي يتبعها الصانع في صَناعتـه .

ويخيل إلي أن نقادنا القدماء كانوا يتصورون أن النص الأدبي يصنع كما تصنع بقية الأشياء الأخرى ـ منزلية وغير منزلية ـ من عدة أشياء وقطع ؛ كل قطعة في مكان معين ، وهي تشكل مع أخواتهـا هـذا الشيء المصنوع الذي ينتفع به الإنسان ماديا ومعنويـا . فالأشياء المصنوعة مركبة من وحدات خاصة ، والنص الأدبي مركب كذلك من وحدات خاصـة ، وهي الكلمات التي حيكت ونسجت بطريقة فنية ، فتبدو هـذه الوحدات متشابكة ومتواشجة كتشابك خيوط النسيج وتواشجهـا . وهـذا هـو المعنى الذي تومئ إليه عبارات الجاحظ : " **صناعـة** " و " **النسج** " و " **التصويـر** " .

•هـذا الإحكـام في الصنعـة والنسج ، هو الذي جعل النص الأدبي " فضيلـة " ومزية خاصـة لدى الجاحـظ .

<u>ثـالثـا : قضية اللفظ والمعنى عند بشر ودورها في تشكّل النص :</u>

يـعد بشر بن المعتمر من بين البيانيين الذين دشنوا الجدال والنقاش في موضوع اللفظ والمعنى وأعطوه أبعادا نقدية خاصـة ، مؤكدا على شرف المعنى وجمال اللفظ . إلا أن هذه الصفة لا تتحقق لـه إلا إذا راعى صانعه فكرة المنفعة والصواب ، منفعة المتلقي واستحسانه لما يلقى إليه من كلام . وفي هذا المعنى يقول بشر : **((ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريمـا ، فمن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهمـا عما يفسدهـما ويهجنهـما))(14)** .

إن المدار في شرف اللفظ والمعنى ، إنما هـو مقيد بقدرة صانع النص في صدق شعوره وجودة تعبيره ومشاكلة اللفظ للمعنى الذي يومئ إليه . وأن الأساس كامن في الائتلاف بينهما لأن بشرا لا يشترط أن يكون المعنى دائما شريفا ، ولكن الذي يروم المعنى الشريف عليه أن يختار له اللفظ الشريف ؛ حتى لا يحدث التفاوت بين مستوى اللفظ ومستوى المعنى . والدليل على ذلك أنه يؤكد في موضع آخـر من صحيفته ، بأن ((**المعنى ليس بشرف بأن يكون من معاني الخاصـة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامـة . إنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعـة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام مـن مقال**))(15) .

يتضح من كلام بشر ، أن الشرف الذي يلح على توفره في الكلام ، لا يكمن في القيمة الأخلاقية أو الاجتماعيـة ، بقدر ما يكمن في القيمة الفنيـة ؛ أي الرفع من مستوى الكلام والإعلاء من قيمتـه ومنزلتـه ، وذلك بألا يتوخى صاحبه الدلالـة اللغوية النازلـة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى التأثير في المتلقي حتى يحرز المنفعـة .

كـما أن " **الصواب** " لا يعني إصابة المعنى وصحة التعبير فقط ، بل يعني كذلك انتقاء الألفاظ الدالة على حال المتكلم وغرضه والسمو بها حتى تلبى ما يتطلبه المقام ، سواء أكان الكلام موجهـا إلى العامـة أم إلى الخاصـة . فالمزية تكمن في مراعاة المقام والطبقة التي يوجه إليهـا الكلام . وفي كل هـذه الأحوال يجب أن يعطى الاهتمام للتناسب بين اللفظ والمعنى ، وإلا لم تحصل المنفعـة . ولهـذا نجده يخاطب مَشكّل النص قائلا له: ((**أن يكون لفظك رشيقا عذبـا ، وفخما سهـلا ، ويكون معناك ظاهـرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصـة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامـة أردت**))(16) .

• إن المقصود باللفظ ، هنا ، هـو اللفظ من خلال سياقه التركيبي ، أي وسائل التعبير كلها وليس اللفظ مفردا . ويبدو هـذا من خلال سياق الصحيفة كلها التي تعالج الكيفية التي يجب أن يكون عليها النص الأدبي ، سواء أكان قصيدة أم خطبة أم مقالة أم غير ذلك من فنون القول التي يتجاوز فيها صانعوهـا إصابة المعنى بالتركيب اللفظي المباشر ، إلى التشكيل الفني الموحي ، حتى يكون كلامهم ضمن الدائرة البلاغيـة ، ومن ثم يكون من صفوة البلاغيين . لأن تشكيل الكلام تشكيلا بلاغيا يتطلب قدرة خاصة ، وأن الصانع البليغ تتجلى بلاغته في كيفية تشكيله للمعاني بحيث تناسب مستوى المخاطبين وأفكارهـم ومنطق عقولهـم . وفي هـذا المعنى يقول بشر : ((**فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغـة قلمك ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، إلى أن تفهـم العامـة معاني الخاصـة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف على الدهماء (**) ولا تجفو على**

الأكفاء، فأنت البليغ التام))(17) .

ومن هنا تتجاوز قضية اللفظ والمعنى ، لدى بشر بن المعتمر ، دلالتها المعجمية إلى البناء الفني والوسائل التعبيرية بعامة ، وعلاقة كل ذلك بحال المتكلم والموقف الذي يكون عليــه .

هــذا هو التصور الذي كان في ذهن بشر بن المعتمرـ حسب تصوري الخاص ـ وهــو بصدد تحبير صحيفته ، وهو تصور قائم على الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها النص الأدبي في ائتلاف وحداته وترابط أجزائه ، وتوظيف الكلمة في مكانها المناسب وعدم إرغامهــا في غير موقعها . ولنستمع إليه وهو يخاطب صانع النص وينصحه بعدم إرغام الألفاظ في غير أماكنها قائلا له إذا كانت((**اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ... فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها))(18) .**

وهــذا المبدأ شبيــه بمبدأ " **نظرية النظم** " عــند عبد القاهر الجرجاني المؤسس على ضرورة إنزال الألفاظ في أماكنهــا تبعا للوضع اللغوي النحوي السليم (19) .

ويــدعو بشر ، هنا ، إلى انتقاء الألفاظ واستبدال بعضها ببعض ، حتى تستقر في قرارهــا ومكمنهــا . لأن للألفاظ حقولا خاصــة ، وكل حقل يتكون من مجموعة ألفاظ تكون متقاربة في الدلالــة . وعلى منتج النص أن يكون قاموسه اللغوي ثريا حتى يستطيع القيام بعملية الاستبدال بين الكلمات التي تشكل حقــلا معينــا .

وإذا حدث أن أخــذ مَشكّل النص ألفاظا من حقول أخرى ، فينبغي أن يحشد لها من القرائن و" **الوسائط** " ما يجعلها غير قلقة وغير نابية . ومن ثــم يبتعد عــن " **الإغتصاب** " و " **النزول في غير الأوطــان** " ، ويحــترز عن التعقيد في العبارة والخطإ في المعــنى .

ومــن هنا كانت أهمية الصحيفة ، ولا تزال ، موضع اهتمام وامتنان ودراسة من النقاد المحدثين ، حين يدعون إلى العودة إليها لأهميتهــا وصلاحية مبادئهــا للدراسات البلاغيــة والنقديــة . مــن هــؤلاء محمد محمد أبو موسى الذي يقول: **((وصحيفة بشر من الأصول البلاغية المهمة والتي تحتاج إلى مزيد من المراجعــة ، لأنهــا ألهمت الدارسين كثيرا من الأفكار والقضايا من مثل القول بملاءمة اللفظ لمعناه كرما وخسة ... ومثل القول بأن شرف المعنى لا يعتد به في تقدير النص والحكم عليه وإنما المعول في ذلك موافقــة الحال ، وما يجب لكل مقام . ثــم القول في تسهيل المعاني العالية وإدنائها من الإفهام العامة وحاجة ذلك إلى البصر بسياسة المعنى والاقتدار في صياغتــه والسيطــرة عليــه))(20).**

وهــكذا نلاحظ أن مضمون هــذه الصحيفة لا يزال يستحوذ على عقول عدد غير قليل من أفكار النقاد والباحثين من الجاحظ إلى يوم الناس هــذا ، وأن كل واحد يتناولهــا بطريقة خاصة ، ويعرضها في كل مرة تحت نور جديد ، وكأنها لم تتناول إلا بهذه الكيفية وبهذه القراءة . وأن النص الأدبي ، في تصوره ، ذو وشائج خاصة ، عند إبداعه ، تتوفر لبعض الناس ولا تتوفر لبعضهم الآخر ، مما يشي بأن العملية الإبداعية ، في نظره ، تتطلب مقدرة خاصة وشروطا نفسية ومعرفية لدى المبدع .

مراجــــع :

(*) ـــ بشر بن المعتمر صاحب البشرية ، انتهت إليه رياسة المعتزلة ببغداد . وانفرد عن أصحابه في بعض المسائل. وكان نخاسا في الرقيق . ..(ينظر ، الجاحظ : البيان والتبيين ، تح ، عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ج1 ، ص41 ، هامش رقم 4) .

ويذكر عنه ابن النديم ، أنه كان شاعرا ، وأكثر شعره على المسمط والمزدوج ، وقد ذكر له 24 كتابا من الكتب النظميـــة . (ينظر ، الفهرست ، ص711) .

1 ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص138 . وكذلك أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ص153 .

وابن رشيق القيروانـــي : العمدة ، ج1 ، ص214 .

(2) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص138 .

(3) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص ص135 ـــ 136 .

(4) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص138 .

(5) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص135 .

(6) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص135 .

(7) ـــ جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط3 ، 1992 ، ص90 .

(8) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص135 .

(9) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص136 .

(10) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص136 .

(11) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص138 .

(12) ـــ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، علم المعرفة ، الكويت ، 1992 ، ص241 .

(13) ـــ الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج3 ، ص132 .

(14) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1، ص136 .

(15) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص136 .

(16) ـــ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص136 .

(**) ـــ الأصل في الدهماء : جماعة الناس . والدهماء : القذر . والدهمة

السوداء. ومنه فرس أدهم . وناقة دهماء : وقوله تعالى : " مدهامتان " : أي سوداوان من شدة الخضرة من الري . (ينظر ، مقاييس اللغة ، وكذلك المعجم الوسيط ، مادة (دهم) .

(17) ـ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص136 .

(18) ـ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1 ، ص138 .

(19) ـ ينظر ، عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، صفحات: 18، 118، 51

(20) ـ محمد محمد أبو موسى : خصائص التراكيب ، ص21 .